

المثقف والسلطة

أسعد أبو خليك*

يتزايد، وسيتزايد، الحديث عن علاقة المثقف والسلطة. في عصر الانتفاضات، وفي عصر تغيير (شكلي) لبعض الأنظمة، سيتعاظم دور بعض المثقفين في العالم العربي (المثقفات مبعديات لضرورات الحفاظ على شرف القبيلة التي تسعى قوات الاحتلال والأنظمة، مثل النظام السوري وأنظمة النفط، إلى الدفاع عنها وتعظيم دورها الرجعي). ولكن، لن يختلف دور المثقفين في العالم العربي عن دورهم في دول ديموقراطية: المرصني عنهم سيبرزون، والمغضوب عليهم سيهيمشون أو سيرج بهم في السجون، أو ستندرج رؤوسهم في الرياض. لكل نظام مثقفوه وكتاب أعمدته. تجنيد آل سعود لهذا العدد الهائل من الكتاب الأبقاق في صحف أمرانهم ظاهرة تستحق الدرس، وخصوصاً أنّ بعض هؤلاء الكتاب يجاهرون بليبرالية منافقة من ناحية، ويصمتون عندما يُقطع رأس امرأة في السعودية بتهمة تعاطي السحر. المثقفون العرب لم يكونوا يوماً بعيدين عن السلطة. لم يكونوا بالضرورة من صنّاع القرار، لكنهم لم يمانعوا في لعب دور أبقاق صنّاع القرار. المثقف العربي لا يصل إلى السلطة وإن اقترب منها: هو في السلطة. المثقف العربي لا يصل إلى السلطة إلا متسلقاً لحركة سياسية شعبية لأنه لا قاعدة شعبية له: أو لنقل إنّ حركات سياسية تتسلقه مثل السلم وتستخدمه قبل أن تستنفد غرضها منه.

علاقة المثقف بالسلطة تحظى باهتمام. إدار سعيد وغيره كتبوا في الموضوع. أراد إدار سعيد من المثقف أن يلعب دور الناقد والمصلح والمصحح. كارل ماركس كتب عن الفلاسفة وطالبهم بضرورة تغيير العالم، لا بتفسيره. لكن الكتابة عن المثقف تحتاج إلى جذرية أكبر. نحتاج إلى مناقشة وجود المثقف، أي التصنيف الاجتماعي له. من تراه يكون؟ ومن هو (أو هي)؟ هل هي وظيفة؟ هل يصبح مثلاً كل أستاذ جامعة مستحقاً للقب مثقف؟ وهل يصلح اللقب على كل من القى قصيدة أو غنى بيت عتاباً أو ناجى القراصنة تحت وطأة الخمر؟ ثم، هل يصبح كل من قبل وظيفة في مركز أبحاث مثقفاً؟ هل هو كل من وضع كتاباً أو كتب مقالة أو دبح تغريدة في حق الحاكم؟ هل هو الذي يكتب خطاباً للحاكم (أو الحاكم السابق، سعد الحريري) أو حتى تغريداته؟ ولماذا نسلم بجواز خلق مهنة أو تصنيف المثقف من دون مُساءلة؟ هل هذا نتيجة تقسيم العمل الصارم في النظام الرأسمالي الحديث؟

الحديث عن المثقف في الرأسمالية الحديثة ينبع من فصل بين العمل اليدوي والعمل الذهني. هذا يدخل طبعاً في باب تهميش الطبقة العاملة وقمعها. أرادت الطبقة الحاكمة أن تكتم أفواه العمال عبر إقناعهم بأن دورهم ينحصر في العمل اليدوي، لا غير. هذا جزء من تطوير الرأسمالية عندما تطوّرت نحو رأسمالية الدولة كي تنقذ النظام الرأسمالي برمته. في القرن التاسع عشر، كانت الطبقة المثقفة تزخر بعمال وأصحاب دكاكين ونجارين وحرفيين. كانت الطبقة الشيوعية تضم إسكافيين وفقراء (طبعاً، ماركس ميز بين صفوف الفقراء واحتقر «البروليتاريا الرثة») وأطلق صفة «كيس البطاطا» على الفلاحين). هذا التقسيم بين العمل اليدوي والعمل الذهني فعل فعله، فأصبح كل ممثلي الشعب (والعمال) من ذوي المهن ذات صفة العمل «الذهني». أين يقع غسان غضن (رئيس اتحادات العمال في لبنان) في هذه التصنيفات؟ لا سمات العمل اليدوي تنطبق عليه، ولا سمات العمل الذهني. لا تجد في الديموقراطيات الغربية تمثيلاً للعمال والمزارعين، إذ إنّ رجال الأعمال والمحامين يحتكرون التمثيل السياسي في الولايات المتحدة. (يستعمل المجلس العسكري في مصر وبعض الأنظمة الجمهورية القمعية كوتا العمال والفلاحين لا

جلبهم نحو صنع القرار، بل للحكم باسمهم). مجموع من يعمل في مراكز الأبحاث يصبح حكماً في نطاق عمل المثقفين. والذين يدورون بورقة وقلم وحاسوب حول الحاكم هم مثقفون. أصبح العمال والمزارعون في منأى عن التفكير والإنتاج الذهني بحكم هذه التصنيفات الاعتبارية الآتية من فوق. وعليه، تعرف فئات المجتمع حدودها وتلتزم آداب الطبقة الحاكمة المفروضة عليها. لها أن تقرأ عن سجلات المثقفين وأن تتابع صراعاتهم. لكن عليها أن تبقى في منأى عن صنع القرار وعن «التفكير» وعن المساهمة في النقاش الدائر. هناك ضرورة لكسر هذا الجدار الوهمي بين العمل اليدوي المحترق والعمل الذهني المحترم (في الشرق والغرب). هناك ضرورة لنسف صيغة المثقف وفئته من أساسها كي يفتح المجال أمام الجميع من مختلف الفئات والطبقات للمساهمة في النقاش الثقافي والسياسي. لا يحتاج المرء إلى تدريب وإلى شهادات (حتى سعد الحريري نال شهادات) كي يصبح مثقفاً. لكن هناك سبباً آخر لقلب الموازين: إنّ الثقافة صناعة، كما كتب عنها ثيودور أدورنو (وقد جمعت مقالاته عن الموضوع في كتاب لم يُترجم إلى العربية). إنّ الثقافة صناعة، والصناعة تحتاج إلى رأسمال، ورأس المال هو بحوزة الطبقة الحاكمة وهو لا يتوزع بالتساوي على كل فئات الشعب. وعليه، فإن رأس المال يحدّد من يدخل في عملية إنتاج الثقافة (صحيح أنّ هناك ثقافة مضادة للثقافة السائدة والمصنعة، لكنها تعاني الفقر والتهميش). إنّ صناعة الثقافة المضادة هي أصعب بكثير من صناعة الثقافة السائدة التي تتمتع بكميات هائلة من المال. هي أن تستطيع أن تنظم مهرجاناً مضاداً لمهرجان الجنادرية، أو أن تقاوم «ثقافة» آل الحريري، أو أن يستطيع علي فرزات الاستمرار في نشر مجلة «دومري».

المثقف في العالم العربي لم يكن يوماً بعيداً عن السلطة. كان قوداً وأداة في الصراعات العالمية والإقليمية في العالم العربي. عودوا إلى تلك الحقبة تجدوا أنّ عدداً من صحافتي اليوم وكتاباه كانوا يُترجمون الدعوى الأميركية المضادة للشيوعية (تخصّصت «دار النهار» اليمينية الرجعية في هذا النوع من الكتابات). إنّ قذري القلعي (اليساري السابق الأول) بدأ مثقفاً شيوعياً وانتهى حامل حقيبة لال الصباح، كما كتب عنه إبراهيم سلامة. كما أنّ المثقفين تجدوا في المعسكرين المتصارعين على الصعيد العربي. جذب آل سعود وال صباح عتاة الرجعيين من المثقفين كي يساهموا في الحملة ضد جمال عبد الناصر وضد كل شعارات المرحلة التقدمية، فيما كان المثقفون في الطرف الآخر منجذبين عقائدياً ومجاناً، في مجملهم (كان ذلك قبل وصول البعث إلى السلطة). كانت جريدة «الحياة» نقطة التجمّع للرجعيين العرب، فيما تناثر الباقون في الصحف والمطبوعات القومية واليسارية. لكن هذا تاريخ. المرحلة الحالية لا تزال ترزح تحت وطأة الحقبة السعودية الأولى والثانية. وفي هذه المرحلة، لم يبتعد المثقف عن السلطة، وخصوصاً في أجهزةها الإعلامية والاستخبارية. فاضل البراك كان نصف أكاديمي ونصف مدير لواحد من أكثر أجهزة الاستخبارات وحشية حول العالم. فاضل البراك كان يدير جهاز الاستخبارات، فيما كان ينشر أطروحته لشهادة الدكتوراه. وعدد من أجهزة الاستخبارات العربية استعان بالمثقفين الذين كانوا بارزين في أجهزة الإعلام والدعاية. ولم يقتصر تأثير المثقفين فقط على هؤلاء الذين يقطنون في البلدان العربية، بل تعدى ذلك ليطاول المثقفين المنتشرين في المهاجر والمنافي، كما أنّ إعلامي المهجر العرب يدينون بالكامل تقريباً لأنظمة النفط (بعدما كان بعضهم مديناً لنظام صدام عندما كان سخياً). ولكن في المقابل، فإنّ هناك مثقفين ناضلوا ضد الأنظمة القائمة وتشردوا جراء مواقفهم، وهناك منهم من مات في السجون. الإجمال في الحديث عنهم جميعاً جائز.

منصف المرزوقي وبرهان غليون في تونس الأسبوع الماضي (أ ف ب)



والإثنان قدما أوراق الطاعة إلى الذراع «الفكري» للوبي الصهيوني، أي مؤسسة واشنطن لسياسات الشرق الأدنى. الغنوشي، في خبر لم ينه، التقى مسؤولين إسرائيليين في واشنطن، حسب ما ذكرت مجلة «إيكونوميست» الرصينة. الصحف الإسرائيلية تحدّثت عن مبادرة من إسرائيل نحو الإخوان وأنساقهم في العالم العربي. وجيفري فيلتمان أكد لصحيفة «هارتز» أنّ الإخوان طمانوا واشنطن إلى أنهم لن يلغوا معاهدة الاستسلام أمام إسرائيل، وسلفيو مصر بدأوا ميكراً بمغازلة إسرائيل وأميركا، وتبنوا احتلال إسرائيل لـ78% من فلسطين. لكن الغنوشي أوضح لـ«الشرق الأوسط» أنّ كلامه أمام الصهاينة لم يكن للنشر، ونفى فقط أن يكون قد انتقد الأنظمة الملكية العربية. وقد لاحظ المرزوقي أنّ الغنوشي أراد أن يُبقي وزير المال وحاكم المصرف المركزي في تونس، وهما من عهد بن علي. الصفة تنبذت معالماً بوضوح. الغنوشي طمان الصهاينة إلى أنه يعارض تضمين بند ضد التطبيع مع إسرائيل في الدستور التونسي الجديد.

لكن المرزوقي -هذا المثقف في السلطة بدون سلطة - أتى بأسلوب جديد. قرر بيع القصور الرئاسية وقرّر التبرع بجزء من راتبه، كما أنه تحدّث بأسلوب جديد. قد يكون المرزوقي أكثر الزعماء العرب قوّة وسلطة - من الناحية الأخلاقية. ويستطيع المرزوقي أن يعزز قوّة الأخلاقية والمعنوية، وأن يصبح الناظر للانتفاضات العربية - لو نأى بنفسه عن السياسة. لكن، كيف ينأى عن السياسة وهو الرئيس؟ وهناك أيضاً ما يقلق: لماذا لم ينشر المرزوقي إلى البحرين في خطابه الرئاسي الأول بعدما كان قد أيد ثورة البحرين؟ ولماذا قرّر أن يكون اتصاله الرئاسي الأول بطاغية المغرب؟ وهل سيخفت صوت المرزوقي ضد إسرائيل؟ ولماذا قرّر المرزوقي رئيساً أن يشكر هيلاري كلينتون على دعم الحكومة الأميركية «لثورة تونس»، كما جاء في الإعلان الرسمي للتلفزيون التونسي؟ ليس من المعقول أن يكون المرزوقي قد نسي السنوات والعقود الطوال من الدعم الأميركي للطغيان في تونس. هل طغى السياسي على المثقف بعد أيام فقط من تولي الرجل منصب الرئاسة؟ من المستحيل أن يبدد المرزوقي مخاوفنا، لو بقي في سلطة تخضع لحكم الحركات الإسلامية. أمامه أن يستمرّ كشاهد أو أن ينأى بنفسه ويعود إلى صفوف المعارضة المبدئية التي برع فيها.

برهان غليون نموذج آخر لمثقف لم يصل بعد إلى السلطة، لكنه يتصرف كأنه استوى في العرش الشامي. ولايته «الرئاسية» ستنتهي بعد أسابيع، لكن من المرجح أنه سيفوز بولاية ثانية من مجلس غير مُنخب وبأكثريّة 99% من الأصوات. الإمارة القطرية سنهل للديموقراطية الهائلة مثل القراصنة. غليون يرسم خطوط سياسته الخارجية أو بالأحرى سياسة سوريا الخارجية، وبما يتلاءم مع خطوط 14 آذار اللبنانية والسورية، والتي تتوافق بدورها مع سياسات حلف الناتو (صاحب الفضل في تنصيب ميليشيات الحرب المتقاتلة والمتشددة دينياً في ليبيا). غليون الذي كان لا يتردد في نقده لأنظمة الخليج والذي كتب في العلمانية، تحوّل، مع ما يُنقل عنه من تذوّق، إلى واجهة لإخوان المسلمين. غليون لم يعلّق بعد على

الغنوشي نموذج لنفاق الإسلام السياسي القادم إلينا بهاركة أميركية

المرحلة الحالية ستشهد هجمة من المثقفين. الكثير منهم كان جزءاً من النظام السابق (إن في ليبيا أو مصر أو تونس)، وهناك من كان مُهمّشاً أو مُبعداً. لكن القول بأن مبارك وبن علي والقذافي أبعدا المثقفين، فيما كان هناك عدد وافر من الكتاب والشعراء والأساتذة الجامعيين في خدمة النظام، قول يحاكي الحقيقة. يريد لنا من يتنعم بصفة المثقف أن يغسل أيدي كل المثقفين من أтам المرحلة السابقة. لم يكن فاروق حسني وحيداً في خدمة نظام مبارك. وهناك مثقفون ممن يمتنون خدمة النظام ومن يليه. المهم التقرب من السلطة.

وهناك ظاهرة المؤنترات والندوات والمراكز البحثية النفضية التي تجذب المثقفين وتمنح الجوائز وتقرّر تصنيف المواهب. دبي باتت مركزاً مُقرراً للذوق الثقافي العام. والمثقف الذي يحيد عن الخط المرسوم له، يعاقب وتُسحب منه الجائزة (كما حدث مع سعدي يوسف في جائزة العويس). على المثقف الطاعة، والطاعة تقضي على الخلق والإبداع. يكفي أن تشهد مسرحية كركلا المكزسة لتبجيل الشيخ زايد. لكن الانتفاضات العربية أدخلتنا في حقبة جديدة من أدوار جديدة للمثقفين.

المنصف المرزوقي من صف آخر. معارض عنيد لنظام بن علي، وكان حريصاً على مناصرة حقوق الإنسان في كل الدول العربية دون استثناء. وصل المثقف المرزوقي إلى السلطة، لكن بثمن قد يزيد في قيمته عبر الزمن. وصل المرزوقي عبر تحالف مع نسق باطني من الإسلام السياسي. راشد الغنوشي نموذج لما ينتظرنا من نفاق الإسلام السياسي القادم بمباركة أميركية. الرجل في كتابه عن «الحرّيات العامة في الدولة الإسلامية» كان واضح المرامي: الحرّيات في مفهومه لا تسود دون هداية من تفسيره المحدّد للشيعة، والديموقراطية تخضع لسلطة ومعايير أعلى منها، مُستقاة من الدين. قرّر المرزوقي من أجل فوز حزبه أن يهادن الإسلام السياسي هذا وأن يميّع الأجندة العلمانية التي يُفترض أن تكون في صلب عقيدة كل حزب ليبرالي أو يساري. لم يكن حجم التنازل قليلاً: قرّر المرزوقي جعل الإسلام السياسي مقبولاً من وجهة نظر الليبرالية واليسارية (كان المرزوقي أقرب إلى اليسار في السابق، لكنه خاض الانتخابات النيابية زعيماً لتيار ليبرالي مُهادن للحركات الدينية).

ووصل المرزوقي إلى السلطة في موقع رئاسي ويفتقر إلى السلطة. ووصل بتسوية تعطي السلطة بالكامل إلى الحزب الذي حاز أقل من 40% من الأصوات في انتخابات بولغ في نسبة الاقتراع فيها. من المبكر التحذير من سيناريو علاقة حزب «تودة» بنظام الخميني. لكن هناك ما ينذر بصفقة رهيبه يعقدها ممثلو الإخوان المسلمين (ومن شابههم) في العالم العربي مع الغرب وحتى مع إسرائيل. إنّ زيارة راشد الغنوشي لواشنطن سبقتها زيارة نائبه،

رئيس التحرير إبراهيم الأمين ■ مديرا التحرير إيلي شلموب، ييارابي صعب
سكرتير التحرير هيفي فاضل ■ الملم بشير البكر ■ أشهاد محمد زيب
وحدة الأبحاث عمر نشابة
المدير الفني إميل منعم

رئيس مجلس الإدارة والمدير المسؤول إبراهيم الأمين
الكاتب بيرون - فزاد - شارع دونات - سنتر كوتكورد - الطابق السادس ■ تلاكس: 01759597 01759500 ■ ص ب 5963/113
www.al-akhbar.com

الاعلانات Tree Ad 03/252224-01/611115
التوزيع شركة الوانك 03/828381-01/666314-15

الزخار

تأسست عام 1953
تصدر عن شركة «أخبار بيروت»

رئيس التحرير المؤسس
جوزف سحاحة
(2007-2006)

مستشار مجلس التحرير
انسى الحاج